الآخـــر . . .

للأديب القصصي أرثور شنيتزلر (*)

ARTHUR SCHNITZLER

وحدي !... وحدي !...

أنا جالس إلى منضدتي ، والمصابيح تتقد ... الباب المؤدي إلى غرفتها مفتوح ، ونظري يسبح في ظلام الغرفة ... الأضواء الشمشمة المنبعثة من الدور المقابلة تنعكس على زجاج نافذتي . . . يا لله ! ... كل شيء قد تبدل ، وأي تبدل ! ... كانت تسبل بعناية ستائر مكتبي ، وتدني بعضها من بعض لتمنع عن تقاربنا ، في غيرة لا توصف ضوضاء الشارع والأنوار المجاورة ...

الساعات تمر ، طفت في غرفتي ، ثم طفقت أطوف في غرفتها فقعدت على كرسيها الطويل بدون حراك ، وأخذت أصوب نظري إلى النافذة ، التي تكشف لي عن عالم أصبح بعدها عديم الأهمية ... ثم وقفت إلى منضدتها ، وتناولت بيدي أقلامها الحبرية والرصاصية التي لما تزل تعبق بأريج أناملها ... انحنيت بعد ذلك على الموقد المطفأ ، وشرعت أحرك الأوراق والفحم ، فكان كل ذلك ، وقد استحال إلى رماد ، يصر صريراً محزناً ، عند ما يلامسه المحرك النليظ الفظ ...

***

أذهب كل صباح إلى المقبرة ! الخريف المتأخر تنيره شمس باردة ، وشفة ... لا أكاد أبصر الجدار الأبيض عن بعد ، حتى أشعر بحرقة في عيني . . . أطوف بين صفوف الأضرحة أراقب الذين يصلون ويبكون ، أصبحت أعرف بعضهم ، وما يدهشني هذه الطريقة المتشابهة التي تكاد تكون هي هي عند الجميع وتلك الحركات التي يكررها كل منهم في كل مرة بدقة فائقة ...

(*) ولد سنة ١٨٦٢ وتوفي سنة ١٩٣٣

أصبحت أعرف تلك الغادة التي تتهالك عند أقدام ضريح يعلوه صليب ، فتجهش في البكاء ، وتذرف ذات الدموع ، تضع ذات أزاهير البنفسج على الأرض المبللة ، ثم تنهض وقد راق لون محياها بعض الشيء ، وتنطلق تعدو ، حتى تبتعد عن المقبرة بخطوات سريعة ، ثابتة . . . إنها تبكي شاباً قضى في الرابعة والعشرين ... خطيبها بدون شك ... ولكن ؟ ... كيف تقوى على النهوض ؟ ... ومن أي ينبوع تستقي ذلك العزاء الذي يلمع في نظراتها كلما همت بالذهاب ؟ ... لشد ما أريد أن أتبعها ، وأن أصرخ في وجهها : « لا عزاء أيتها المجنونة البائسة ! » ولكن . . . وأنا . . . أنا وقد اعتدت أن أحج كل يوم إلى هنا ... عم أبحث إذن ؟ ...

أولئك النساء ذوات البراقع الحريرية ، والقفازات السود ، يضايقنني كثيراً ... لا ريب أني مثلهن ، شاحب اللون ، منتفخ الأجفان ، ولكني وأنا ثمل بشيء سام ، متقطع التفكير ، لا أحتمل هذا التأثر الذي يرتسم على وجود الآخرين ، فأنظر بشيء من الحسد إلى كل من تهزه الرعشة التي تهزني ...

والآن ، فإن ثائرتي لتثور لمجرد الافتكار بأن جميع هؤلاء الذين يتيهون بين الأضرحة يفترسهم نفس الألم الذي يفترسني ، ذلك الألم الخالد الذي نعجز عن التعبير عنه ! أوه ! يا للرحمة ! ... جميعهم يتألمون كما أتألم ، والأيام تمر ، فتجلب أفكاراً جديدة ... وتبعث آمالاً جديدة ... وتعيد بصورة أكيدة ، ربيعاً ينشر خضرته الصفيقة أمام أبصارنا ... فيعود الهواء فاتراً ، وتعود الأزهار تعطر الجو بأريجها ... وتعود النساء تبتسم كما كانت تبتسم من قبل ... فنخدع عن أنفسنا مرة ثانية ... نخدع عن أنفسنا ، وننسى حزننا ! !

***

أقف دائماً على بعد بضع خطوات من النجف الذي يواريها ... عند ما يوضع الحجر أستطيع أن أتكئ على درجات الضريح الباردة ، وأستطيع أن أنحني على قبرها ، وأن أجثو أمامه ... أما الآن فلا أجرؤ على الاقتراب خشية أن ينهال الحصى على نعشها ... ورغم ذلك ، تنتابني بعض الأحيان رغبة شديدة ، لا تقاوم ، للارتماء على ذلك النجف ، ونبشه بأصابعي ... إن لي

لا يعرف الصبر ، ولا يجد إلى العزاء سبيلاً ... إنه ألم وحشي تصطك له أسنانى ... أصبحت أبغض كل شيء . وجميع الناس وعلى الأخص أولئك الذين يتألمون مثلى !!!

هؤلاء الرجال والنساء ، والأطفال ، الذين أصادفهم كل يوم يثيرون حفيظتى ... ليتنى أستطيع أن أطردهم ... إن الحزن ليضيّق على الخناق بصورة خاصة ، عند ما يخطر لى أن أحدهم ربما كان قد زار المقبرة للمرة الأخيرة البارحة إذ أحست بسكون ألمه ، ولاحظ أنه يخف من يوم لآخر ، وهو يعود من مدينة الأموات فعاد منها لا يتألم ... واستيقظ مع الصباح باسماً !... آه !... كم أبغض أولئك الذين يستعيدون ابتساعهم !!!

هل يأتى يوم أستعيد فيه أنا أيضاً ابتسامى ؟... وأنسى ؟... إن ذكرى شبابى لا تكاد تفارقنى : إنى لأرى نفسى وقد اجتزت الغابة إلى جانبها ... كان لا بد لى أن أكون سعيداً جداً ، وقد كنت بالفعل سعيداً جداً ... ولكن هنالك لحظات تلتهم فى أحشائها كل شيء ، تلتهم المستقبل والماضى لأنهما الخلود نفسه !

لم أكن قط من أولئك المتنزهين الهادئين الذين يعبرون الطريق ، ويتوغلون فى الحقول ، ويتمددون بلطف فى ظلال الدوح ، ليستروحوا النسمات البليلة التى يتعشهم بها صباح منوّر كلا ! لم أكن من هؤلاء ، وإنما كنت أتسلّق الأشجار ، لأستكشف آفاقاً أوسع ، وكنت أشاهد الطريق إذ ذاك تتوارى فى السهول البعيدة ، حيث يحتضر الربيع ...

فى هذه الغرفة ، وإزاء هذه النافذة ذاتها ، التصقت بى ذات يوم ، وأخذت تعانقنى وتقبلنى ... رعشة باردة هزتنى ... الدقائق ، الساعات ، الأيام ، السنون ، كل ذلك طفق يهرب مسرعاً ، مسرعاً ... إنتهى عهدنا ، دب إلينا الهرم ... أدركتنا النهاية ... بمثل هذه الأفكار كنت أدنّس حبنا ، باعترافى بقابليته للزوال والفناء ، وهكذا كنت أدنّس ألمي الآن ، بتفكيرى بأنه قد يأتى يوم أستعيد فيه ابتسامى !

ولكن من هو هذا الرجل ، ذو الشعور الشقر والنظرات الكئيبة ؟ ومَن يبكى ؟ ... إنه ليزور كل يوم ضريحاً بجوار ضريح امرأتى ... وإنه ليلفت أنظارى إليه ، لأنى لم أستطع أن أبغضه كالآخرين ... إنه يأتى كل يوم قبلى ، ولا يفارق موقفه حتى بعد ذهابى ... وقد كان من الممكن ألا أشعر بوجوده لو لم ألمحه ذات يوم يرمقنى بحنان زائد ، أربكنى وأزعجنى ... فتفرست فى وجهه ، ولكنه حوله عنى شيئاً فشيئاً ، ثم راح يعتمد وهو محاذ للجدار ... من المرجح أننى عرفته قبل اليوم ... إن وجهه ليس غريباً عنى ...

أين رأيته إذن ؟ ... فى سفر ؟ ... فى مسرح من المسارح أو شارع من الشوارع ؟ ... يخيل إلى أنه يشعر بحزنى بصورة غريزية . ولعل حزناً كحزنى يمضه ... هذا الافتراض يفسر نظراته التى لا أجد إلى نسيانها من سبيل ... إنه شاب وجميل !

ها قد جلست مرة أخرى إلى متضدتى ، أزهار ذابلة تكتنف رسم المرأة التى كانت قرينتى ، بل سعادتى ، بل دنياى !... بدأت أفهم الأشياء وأقدرها ... الأيام التى عشتها أخيراً غشّت على عقلى ... ولكنى انتهيت بأن وجدت نفسى ...

للمرة الأولى منذ شهر ، عزمت على أن أشغل نفسى بشيء ، أن ألتمس مكتبتى ، أن أنظر فى بعض الأوراق ، أن أفكر ... ولكنى لم أفعل شيئاً من ذلك ... بل عدت إلى المقبرة ... كان الليل قد شرع ينشر أجنحة السوء ، ولم يكن فى المقبرة أحد ... للمرة الأولى جثوت على ضريحها ، وطفقت أقبل الأرض التى حنت عليها فوارتها بين تضاعيفها ... وأخذت أبكى : نعم بكيت لا صوت ... لا نأمة ... صمت رهيب ... هواء ساكن ، بارد ... ثم نهضت ألتمس الخروج بين صفوف الأضرحة من جهة الكنيسة ... لا أحد ... كان القمر يسكب ضوءه على الصلبان والأحجار بصورة لا يمكن أن يفوتنى معها وجود شخص ما ... فلما همت بالذهاب ، صادفت امرأة فى نقاب الحزن ، وفى يدها منديل ... إنى أعرف النساء ... كانت الطريق العريضة المؤدية إلى المدينة بيضاء تحت أشعة القمر ، وكنت أسمع وقع خطواتى ، لم يكن هنالك من يتبعنى ، وهكذا بلغت منفرداً أطراف المدينة حيث استقبلتنى منازل الضواحى ، والفنادق ، وتردّدت فى أذنى أصداء الجلبة والضوضاء ...

أشعر بشيء من التحسن فى حالتى ... الآن وقد عدت ، أحس برغبة ملحة ذهبت عن خاطرى منذ عهد طويل ، أحس

برغبة قوية لفتح نافذتي ، لأسمع جلبة الشارع ، بل لأسمع أصواتاً بشرية ، ولكن الليل شاخ وصمت . . . وأناملي تكاد تجمد من البرد وأنا أخط هذه السطور . . . والضوء يضطرب رغم سكون الهواء . . .

كنت مستنداً إلى جدار المقبرة ، وكانت تحجبني عنه صفصافة ضخمة ، وقد بكّرت كثيراً لأكون الأول ، فأدركت المقبرة وفي غرفة الحضار مصباح . . . توافد بعدي كثيرون ، نساء على الأخص . . . وفجأة . . . هو ! . . .

اقترب بهدوء من المكان المعتاد ، بعينيه الواسعتين ، الحزينتين ، ثم جثا على قدميه ، فبذلت قصارى جهودي لأراه جيداً . . . وإذا به يجثو على ضريح امرأتي !!!

انقطعت عن كل حركة . . . وشعرت بأنفاسي تتردد لاهثة ، متقطعة ! . . . وأحسست بأصابعي تتشنج على أغصان الصفصافة . . . مرت دقائق . . . لم يكن يصلي . . . ولم يكن يبكي . . . وأخيراً نهض وراح يطوف بين الأضرحة بدون وجهة معينة كما كان من عادته أن يفعل . . . فاقتربت من الضريح ، ووقفت على مقربة منه مستنداً إلى حاجز حديدي يكتنف ضريحاً آخر ، وإذا به يعود من ناحيتي وينظر إليّ بهدوء . . . ثم يستأنف سيره . . . وعبر . . . أردت أن أتقدم منه وأن أسأله ، ولكني لم أفعل بل ظللت أشيّعه بأنظاري زمناً طويلاً إلى أن اختفى وراء الكنيسة . . .

لا أعرف بماذا كنت أشعر ، ولا أعرف بماذا أشعر الآن ! ولكن سيأتي يوم ، ربما كان غداً أراه فيه ، وأستفسره وأعرف كل شيء !

* * *

آه ! يا لها من ليلة ! لا أجد إلى الرقاد فيها من سبيل ! إن الساعة لما تزل دون الواحدة بعد . . . فلماذا لا أعود إلى المقبرة ؟ ولكن ماذا أستطيع أن أفعل هناك . . . ألا بضع ساعات صبر ! بضع ساعات فقط ، وجنوني يعرف له حداً . . . ويتضح كل شيء أجل على ضريح امرأتي ! هنالك رأيته مرة ثانية !

كنت على خطوات ممدودة منه ، فلماذا لم أنقضّ عليه ؟ ولماذا لم أقطع عليه الطريق عند ما شاهدته يبتعد ؟

أليس من حقي أن أسأله عن اسمه ؟ وممن أستطيع أن أستفهم إذا لم أستفهم منه ؟

حين حاول تخطي الباب وتبعته ، ولكن يظهر أنه أحس بي أجل لست مخطئاً . لا بدّ أنه أحسّ بي ، إذ حثّ خطاه مسرعاً ، فحثثت خطاي أنا كذلك . ولكني عند ما أدركت الباب كان قد غاب عن ناظري ، ثم لم ألبث أن أبصرته ثانية يستقل سيارة ، حتى إذا صعد إليها انطلقت تعدو به مسرعة . . . ولم تكن هنالك سيارة أخرى ، فطاردته راجلاً ، ولكنه لم يلبث أن بعد عني كثيراً ، فوقفت أشيعه بنظراتي مدة غير قصيرة . كانت الطريق مستقيمة ، فما زلت أراقبه عن بعد حتى اختفت السيارة ، وتوارت عن الأبصار

من هذا الرجل الذي يجثو على ضريح امرأتي ؟ ومن يكون لها ؟ كيف أعرف ذلك ؟ وكيف أراه ثانية ؟ آه . . . إن ماضيّ بأسره ليتفكك ويتحدد . . . إن ماضيّ بأسره لتعبث به يد المسخ والتشويه !

هل أنا مجنون ؟ أيمن الممكن ألا تكون قد أحبتني ؟ . . . ألم تكن تقف وراء هذا الكرسي ؟ . . . وتضع شفاهها على جبيني ؟ وتلف ذراعيها حول عنقي ؟ . . . ألم نكن سعيدين معاً ؟ ولكن من يكون هذا الشاب الأشقر الجميل ، إذن ؟ . . . ولماذا بدا لي أن محياه ليس غريباً عني ؟ . . . إنه ليخيل إلى الآن أني شاهدته مراراً في المسارح والمغاني ، جالساً تجاهنا ، ونظره عالق بامرأتي ، لا يكاد يحيد عنها ! . . . ألم يكن هو الذي وقف ذات يوم عند مرور سيارتنا ، وتبعنا زمناً طويلاً بنظراته ؟ من هو إذن ؟ من هو ؟ من ؟ من ؟ . . . أيكون عاشقاً « أفلاطونياً » لم تعرفه هي ؟ ولم تمل إليه قط ؟ . . . لو كان الأمر كذلك لعرفته أنا أيضاً ، إذ كان لا بد له أن يبحث عن وسائل يرانا بها في المجتمعات ، ويتحدث إلينا . . . ولكن كلا . . . لعله كان يحذرني . فتعرّف على امرأتي ولم يتعرف علي ، وتبعها في الشوارع وتجرأ على توقيفها . . . كلا ! . . . لو جرى شيء من ذلك لكانت أعلمتني به . . . ولكن هل كانت تعلمني به ؟ . . . أليس من الممكن أن تكون أحبته ؟ . ولكنها كانت تحبني ! . كانت تحبني ؟ . من أين لي هذه الثقة ؟ ألأنها كانت تقول لي ذلك ؟ . جميع النساء يقلن ذلك ! والخبيثات يسرفن فيه أكثر من الطاهرات

أوه ! لا بد لي من إيجاده والاستفسار منه . ولكن إذا كانت قد أحبته ، فبماذا يجيبني ؟ إني أزور ضريحها لأني كنت أحبها ، ولكنها لم تعرف ذلك قط ! وهل أستطيع أن أضطره إلى الاعتراف بالحقيقة ؟ فما العمل إذن ؟

وهل أستطيع أن أستأنف الحياة على هذه الصورة ؟

لم أشاهده طيلة ثلاثة أيام . كنت أذهب كل يوم ، ولكنه لم يكن يأتي ... الحفارون يجهلون اسمه ، لا يعرفه أحد ... لعله سافر . ولكنه لا بد له أن ... لا بد له أن ... وإذا كان قد توفي وإذا كان قد توفي ؟ لأنه لا يستطيع أن يحيا بدونها ! آه . إن هذا الافتراض ليبعث على الضحك ، أيكون هنالك رجل آخر لا يستطيع أن يحيا بدونها ؟

ليس لي سوى رغبة واحدة ، وهي أن أقول له : سيدي المحترم ، لا تذهب في تفجعك عليها إلى هذا الحد ، إذ من المحقق إنها أحبتني أنا أيضاً ! » أريد أن أجعله غيوراً ...

قذفت رسمها تحت منضدتي ... هو ذا في وسط الغرفة ، على الأرض بين رسائلها المبعثرة ، بين تلك الرسائل التي كانت تحفظها في خزائنها وأدراجها ... فتحتها كلها ، ونبشت فيها ... ماذا وجدت ؟ ... رسائل كنت بعثت بها إليها ... وأزهاراً كنت قدمتها إليها ... وأشرطة حريرية ... وتذكارات ...

لعل بين تلك الأزهار زهرة مقدمة من قبله ... كيف الوصول إلى معرفة ذلك ؟ ... وماذا كنت أبغي المثور عليه ؟ ... وهل تحتفظ المرأة بشيء يمكن أن يخونها ذات يوم ؟

أفرغت جيوبها ... قلبت أثوابها ... باحثاً ... منقباً ... عن ورقة رقيقة تكون قد نسيتها سهواً ... ولكنها لم تكن قد نسيت شيئاً !

لم أعد بعد ذلك إلى المقبرة وأصبحت أرتجف لمجرد التفكير بمشاهدة ذلك الضريح مرة أخرى !

أحيا الآن ساعات أخف وطأة من قبل ، لأن الأيام الأولى قد عبرت دون أن يصاب عقلي بخلل ، فعليّ أن أمتنع بعدم إمكان معرفة الحقيقة أبداً

كم أحسد الرجال الذين يعرفون أن نساءهم تخونهم ، إذ أنهم متأكدون من مصيبتهم على الأقل ! وكم أحسد أولئك الذين إذا أمضهم الشك ، استطاعوا أن يراقبوا نساءهم ، على رجاء أن يخونهن كلمة ، أو نظرة ، أو حركة ، أو إشارة !

أما أنا فقد قضي علي ألا أستطيع شيئاً من ذلك قط ، لأن الضريح أبكم لا يبدي ولا يعيد !

ويتفق لي أحياناً أن أهب في الليل من نومي ، مذعوراً ، يرهقني كابوس هائل لعلي دنست ذكرى امرأة طاهرة ، وزوج مخلصة !

آه ! . . لو أستطيع أن أحب ذكرى تلك المرأة التي منحتني ذلك المقدار العظيم من السعادة !

وآه ! لو أستطيع أن أبغض ذكرى تلك المرأة التي خانتني ، وعبثت بشرفي وكرامتي !

أعدت رسمها إلى منضدتي . رفعته من الأرض ووضعته في مكانه المعتاد . ولكن لماذا لا أستطيع أن أعبدها و ... أن أجثو أمام رسمها كما أجثو أمام رسم قديسة ، وأجهش في البكاء ؟

ولماذا لا أستطيع أن أحتقرها ؟ وأن أمزق هذا الرسم ؟ وأن أدوسه بنعالي ؟

طيلة ليال عديدة لبثت أحدق النظر في هاتين العينين الصامتتين ، الباسمتين ، الحاطتين بالرموز والألغاز !

إيناك شموسه

وزارة المعارف العمومية

إدارة التوريدات

المناقصات العامة

إعلان مناقصة

تقدم العطاءات بعنوان حضرة صاحب العزة سكرتير عام وزارة المعارف العمومية بشارع الفلكي بمصر بالبريد الموصى عليه أو بوضعها باليد بمعرفة مقدميها في داخل الصندوق المخصص لذلك في إدارة المحفوظات بالوزارة لغاية الساعة العاشرة من صباح يوم ١٩ / ٧ سنة ١٩٤٢ عن توريد معادن لازمة للمدارس الصناعية لسنة ٤٢ – ٤٣ ويمكن الحصول على شروط وقائمة للمناقصة المذكورة من إدارة التوريدات بشارع درب الجماميز بمصر نظير دفع مبلغ ١٠٠ مليم . ٩٣١٧

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)